



الفقر في الأمثال الشعبية

يوسف عطا الطريفي/ الأردن

تباين مستويات المعيشة بين الناس، وهذا شيء طبيعي، لكن رؤى الباحثين مختلفة بين ما هو مادي واجتماعي وثقافي. والفقر هو إحدى المعضلات الاجتماعية الخطيرة التي تهدد أمن المجتمعات، ولذلك جاء في الأثر: (لو كان الفقر رجلاً لقتلته). وورد في مقابل ذلك: (اللهم احشروني مع الفقراء).

ويعتبر الفقر ظاهرة اجتماعية لها امتدادات وانعكاسات خطيرة ومتعددة الأشكال والأبعاد، مما أدى إلى ظهور الطبقة في حياة البشر، نتيجة التمييز الذي أدى إلى عدم المساواة، وكان نتيجة ذلك ظهور النزاعات واشتداد العنف داخل المجتمعات وحتى بين الدول، وهذا تبّه أهل الاختصاص، فقاموا بعمل الدراسات واستخراج النتائج ووضع الحلول، وإن كانت بسيطة أو متحيزة، لكن تجارب الناس وشعورهم بالظلم ساقهم إلى ضرب الأمثال الشعبية لبيان أسباب هذه الظاهرة وآثارها على المجتمعات، فقارنوا

يُسكّل الأدب الشعبي لأيّ أمة من الأمم قيمة بارزة من قيمها التي تمثّل وجودها وعمق جذورها، وقد تنوّعت أشكال هذا الأدب بين الحكاية الشعبية والأغاني والأهازيج والأدوات التراثية وغيرها، وكانت الأمثال أحد هذه الأشكال، وبَدَت أسرع انتشاراً بين فئات المجتمعات، لأنها تفسّر جوانب كثيرة من حياتهم الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ولذلك كان لا بدّ من معرفة أثر هذه الأمثال التي حفظها الناس وحافظوا عليها، واختزنها من خلال تراكمات الماضي وما فيه من عبر ومواعظ اشتملت جزءاً أصيلاً من تراثهم، حتى غدت من أشدّ ألوان التراث تأثيراً في النفوس. ولذلك حظي المثل بعناية خاصّة لأهميته وضرورة استعماله، فصار كالعلامة البارزة عند المثقفين والعوام؛ لغرض تقريب المراد واستعماله عند الحاجة في التّظاير والأشباه، فاجتهد المعنّون به وألّفوا المؤلّفات الضخمة فيه.

بين الغنيّ والفقير، فقالوا:

“الغني يا مكثّر زوّاره والفقير ما حدا بدقّ بابّه”

“الغني بغنّوله والفقير بطقعوله”

“الغني بدفع الغرامة من ماله والفقير بدفعها

من جلدّ ظهره”

“إن وقع الغني بيقولوا حادث، وإن وقع الفقير

بيقولوا مارق”

“عيبة الغني وموت الفقير ما حدا بدرى فيهن”

وضربوا الأمثال عن الفقر والفقراء، فقالوا:

“الفقير بركض ورا الرغيف والرغيف بركض

قدّامه”

“نهار الفقير قصير”

“الفقير إن ركب عاجمل بعضه الكلب”

“الفقير بطلع وبرجع على بيته مكسور خاطره”

وقد لا يُستشار الفقيرمهما كان رأيه سديدًا لقول

المثل:

“نعجة الفقير ما بتسمن”

“الفقير في دياره غريب”

وإذا احتاج الفقير شيئًا ما، ولم يتمكّن من

الحصول عليه، لعدم قدرته على دفع ثمنه قال

المثل:

“اللّي معوش بلزموش”

فإن تدخّل في أمر ولم يسمع منه أحد، وعاد

حزينًا متألّمًا قال المثل:

“معاك قرش بتسوى قرش”

وإن سُئل الفقير عن حاله وأحواله قال المثل:

“الفقر كابس والرزق حابس”

“إذا فات الفقر من الباب شرد الحب من

الشباك”

فيجيبه بعض معارفه بقول المثل:

“ما شدّة إلا وراها فرج”

فإن لاحظ أحد عليه وهو يحاول إبعاد التّكدّ عن

نفسه، وسأله عن سبب ذلك قال:

“فقر وقلة كيف؟! ”

وان عرض أحد على الفقير شراكته في عمل، ظلّ

منه أنه يملك مالًا قال المثل:

“صبي الحمام إيد ورا وإيد قدّام”

وعند سؤاله عن سبب تبرّمه وكثرة شكواه تنهّد

وقال:

“الطّفّر بعمي البصر”

“فضيحة وعليها شهود”

وعندما لم يجد شيئًا يقدّمه لعياله يصبرهم

بالقليل، فيقول:

“خبز حاف برّي كتاف”

ويزداد تبرّمه من الحياة وهو يرى أولاده يشتهون

الشيء فلا يجدونه، فيقول:

“الكسرة في إيد الفقير هجنة”

“الجعان بحلم برغيف العيش”

وقد يطّلع بعضهم على حاله، فيقولون عنه:

“عايش من قلة الموت”

وعلى العاقل معرفة أنّه ليس كل الناس يولدون

وفي أفواههم ملعقة من ذهب، لذلك عليه أن لا

يستكين ولا يستسلم، لقول المثل:

“اللّي في بال أمر الخير بتحلّم فيه طول الليل”

فإن وجد ما يغيّر به حاله إلى الأفضل قال

بعضهم المثل:

“أبو رنة بتمّي يدخل الجنة”

وإن وجده الناس صابرًا وقانعًا وعفيًا قالوا:

وحينها يكثُر زوّاره وخلّانه بعدما كانوا لا يطرُقون
بابه، فيقول المثل:

**“الدنيا دزّهمتني وصار إلي مقدار، ونادوني يا
حجّ ويا مختار”**

وعندها تظهر النّعمة على أهله وعياله، فيقول
المثل عن زوجته:

“بعد ما بكت خادمة صارت في البيت حاكمة”
وتقول النّسوة من باب الغيرة والحسد:

“بعد العَشْه والحوس لبست العقد والبروش”
فإن تساءل الناس عن سبب هذا التحوّل المفاجئ
وتغيّر الهيئة، قال المثل:

“قاعد على القهوة وإجاله الخير على سهوة”
فيجيهم المثل:

**“إن أقبَلت باض الحمام على الودت، وإن
أدبَرَت بال الحمار على الأسد”**

ويقال النصف الثاني من المثل بصيغة أخرى:
“خلع الحمار الودت”.

وعند تغيّر الحال وانقلاب الرّمان، قد يُصاب
المرء بالغرور، فيقول له المثل:

“اللي بدّه ييسط نفسه يتذكّر ليلة عرسه”

فإن احتاجه أحد، ووعده ولم يفِ بوعدِه وصار
يتعذّر، قال له المثل:

**“اللي يوعد المحتاج ويمنيه يلقاه على الباب
مستّيه”**

وعند تنكّره لسابق عهدِه، يذكر الناس المثل:

“جيته وداريته ولما عزّته ما لقيته”

وقد ينتقل هذا إلى مكان آخر، فيتعجّب مَنْ
يعرفه، فيقول المثل:

“راح امبيرح والي فيه، وبكره يبجي وبنلاقه”

“زينة الفقر العفاف”

“خير الغنى القنوع وشّر الفقر الخضوع”

ومقابل ذلك إن كان متمرّدًا وقليل الصّبر وشديد
الإلحاح قالوا:

“فقيّر ونقيّر”

“زبّال وحامل وردة”

وقد يضطرّ الفقير العفيف إلى الوقوف أمام بيت
الغنيّ، فيقول المثل:

“كل شيء حَسَبنا حسابِه إلّا وقفنا على بابه”

فإن عاتبه أحد على سؤاله لغيره قال المثل:

“الفلوس بتيهن النفوس”

“الجوع كافر”

وقد يعاتب الفقير نفسه، فيقول:

“اللي بلا دين أحسن من الغنى وجّرّ الرجلين”

وقد ينبّه هذا الموقف، فيستيقظ من غفلته،
ويذكّره بالمثل الفصيح (رُبّ ضارّة نافعة)
ويكون دافعًا له للجدّ والاجتهاد، فتخطر له فكرة
جديدة، فيقول المثل:

“الحظ لَمّا يواتي بنقلب الأعمى ساعاتي”

فيبدأ عملًا جديدًا، ويطوّر نفسه بالخبرة
والتجربة، فيشتهر ويقول على رأي المثل:

“من كثر العميان صار الأعور باش كاتب”

وعندها يتدخّل المثل، فيقول له:

“ساند ظهرك بعقلك”

فيتذكّر من كان مُعدّمًا، ويحدّر نفسه حتى لا
يعود إلى ما كان عليه، فيقول المثل:

“بين السابق والمسبوق دقّة خازوق”

وقد يطلب المزيد، فيقول المثل:

“يا دنيا أعطيني ولا ترجعيني”

وبعضهم يذكّره بما لقيه وما كان عليه، فيجيبه
بقوله:

“كُلُّ ما راقَتْ حليَّتْ، وكل ما حليَّتْ شالت”

وفي الجلسات تملأ الضحكة شذقيه بعد العبوس
والشأن، فيقولون المثل:

**“صار معه الذهب يشنّ ويرنّ والله وضحك
السّن”**

“كبر البصل وادور ونسي حاله الأوّل”

“كبرت يا (...) واطلعت من عبّي”

وعند انطلاق الألسنة بالمدايح في لقائه يقولون:

“ما يحلّي ريقك إلا رقيقك”

وإن عبّره من يعرفه وأراد أن يقلل من شأنه، قال
المثل:

“يا سيّ شوفيني ومن عينك لا ترميني”

واعلم أنّ هناك من يتعفّف، فلا يسأل الناس
مهما بلغ به العوز، فتقول الناس المثل:

“الناس بتعرف قارون وحابس والعريان

واللابس” ■

